كلمة أخرى على الهامش

أهذا نقد ؟ أهذا كلام ؟

للأستاذ على الطنطاوى

أنا رجل له عمله الذى يملأ يومه ، ومنهجه الذى يدير حياته ، وليس من عمله ولا فى منهجه الدخول فى هذه المناظرة التى يقوم سوقها بين الأستاذ الكاتب الفحل محمود شاكر ، وبين الأستاذ سيد قطب . وأنا رجل عرف شاكراً وعرف الرافعى العظيم رحمه الله ، وغدا لطول ما قرأ لهما ووثق بهما يقبل كل ما جاءا به . ولكنى لم أعرف الأستاذ قطب قبل اليوم [1] ولم أعلم له وجوداً ، فهو عندي كاتب جديد أرى اسمه للوهلة الأولى فلا أضمه في منزلة من نفسى ، ولا أجدنى من قرائه ، ولا أعلم لآرائه من القيمة والخطر ما يدفعنى إلى مناقشتها . فلا شأن لى فى هذه المناظرة ، وليس علىّ خوض غمارها ، ولكن ما قرأته للسيد قطب فى هذا العدد الأخير (٢٥٥) خفزنى إلى سوق هذه الكلمة أسأل فيها : أهذا نقد ؟ أهذا كلام ؟

لقد تعلمت (وعلمت تلاميذى) أن النقد يستند إلى دعامتين : دعامة من اللغة وعلومها — نحوها وصرفها وبيانها — يعرف بها خطأ الكلام من صوابه ، ودعامة من الذوق يعرف بها جماله من قبحه . أى إن النقد (علم) حين يدور على الخطأ والصواب ، و (فنّ) حين يبحث عن الجمال . أما (فنّ النقد) فلا يمكن الجدال فيه لأن أداته الذوق ، والذوق شيء شخصى ومداره على الجمال ، والجمال لا يتبع قاعدة ، ولا يعرف له مقياس . فإذا قال سيد قطب : إن هذا البيت من أبيات الرافعى قبيح ، كان معنى قوله أن هذا البيت لا يوافق المثل الأعلى الذى أتصوره أنا فى الشعر . وإذن يحق لغيره أن يقول له : بل هو جميل عندى . (أما علم النقد) الذى يستند إلى علوم اللغة فالجدال فيه ممكن بل واجب ، والحق فيه معروف ظاهر ، لأن لهذه العلوم قواعد وأسساً ، فما قام عليها فهو صواب ، وما حاد عنها فهو خطأ ...

فلننظر بعد هذا فى نقد الأستاذ قطب بيت الرافعى رضى الله عنه:

إن الظلام الذى يجلوك يا قمر ... له صباح متى تدركه أخفاكا

حين يقول : (والحب الذي هو ظلام لا يحتاج للتعليق ، فما يوجد حب فى الدنيا تظلم به الأرواح ، ولكن الرافعى هكذا يقول) ...

فهل فى الدنيا قارئ يفهم أساليب العرب يذهب إلى أن المراد من هذا البيت تقرير أن الحب ظلام ؟ وهل يدل هذا على فهم صاحبه ووقوفه على علم البيان العربى وسنن العرب فى كلامها ؟ إن صغار الطلبة يعرفون من دروس البلاغة أن هذا (تمثيل) يراد منه تشبيه صورة كاملة بصورة كاملة ووضع أحداهما مكان الأخرى على الأسلوب المجازى المعروف ؛ ولا يمكن أن ينفك جزء من أجزاء هذه الصورة عن جزء . ومعنى هذا البيت : أن الحب الذى يجملك مثل القمر ، ملء ناظرى وملء الدنيا ، لابد أن تكون له نهاية ، شأن كل حب فى الدنيا ، كالليل يبدو فيه القمر مجلواً وضاء ، ولكن الصباح الذى لابد منه يخفى هذا القمر ويمحوه

وفي الكتاب المدرسى المقرر فى مصر لطلاب السنة الرابعة الثانوية ما يكفى العلم به لتجنب الوقوع فى هذا الخطأ الذى وقع فيه الأستاذ سيد قطب . ومن أمثلته أن تقول لمن يقصر فى عمله ويرقب (العلاوة) : إنك لا تجنى من الشوك العنب . فهل يصح لرجل أن يسخر مثلما سخر ، وأن يقول هذا خطأ لأن العلاوة ليست عنباً ؟ ولا دخل للعنب فى هذه المسألة ... أو تقول لتلميذ قصر فى الاجتهاد : الصيف ضيعت اللبن . فهل يجوز لناقد من طراز سيد قطب أن يقول له : هذا خطأ لأن الدراسة تكون فى الشتاء لا فى الصيف ، وأنه ليس فى مقرر الصف لبن ؟

أهذا نقد ؟ أهذا كلام ؟

* * *

ومثله انتقاد سيد قطب تشبيه الرافعي رضى الله عنه الليل والنهار بشقى المقص (المجتمعين تحت مسمار الشمس) ، ورده عليه بأن (الرافعى لم يخطر على باله أن الليل والنهار من الظواهر الأزلية العميقة . وأن بناءها هكذا عمل سرمدى دائم من بدء الخليقة إلى نهايتها) وإنهما ليسا شقى مقص

برافو سيد قطب ! لقد كشفت أميركا ؟

وما قولك بتشبيه شوق الشفتين بشقى مقص من عقيق . ألم يخطر على باله إن الشفتين ليستا شقى مقص وإنما هما شفتان ؟ والمجاز كله ؟ ألم يخطر على بال أصحابه أن له حقيقة قد صرفوه عنها ببراعتهم وحدة أذهانهم ؟ أنهدم المجاز كله يا سيد قطب ؟

(١) وليس يضره إن كنت لا أعرفه ، وكان فى ذاته شيئا ، وليس ينفعه أن يعرفه ألوف وهو ليس بشيء